

الفصل السابع

نصر المؤمنين

كان المسلمون يتحرقون شوقاً إلى مكة ، وللطواف بالكعبة ، وخاصة المهاجرون منهم ، حيث ازداد بهم الحنين إلى مدينتهم ، وما خلفوه فيها ورائهم ، من الأهل والولد وللتجارة والأمل . وانقضى عام على صلح الحديبية ، وحل موعد للعمرة ، حسب شروط للصلح . وكان رسول الله (ص) يتوخى أغراضاً عديدة من دخول مكة لقضاء للعمرة ، بعد أن حرم منها في العام المنصرم : فكان يريد أن ترى قريش تمسك المسلمين بدينهم ، وحبهم لنبيهم ، وسيادة النظام فيهم ، وللتعاون وللتأخي بينهم ، وتقديسهم للكعبة ، وقوة الإيمان في قلوبهم . وسرعان ما نادى للرسول (ص) في صحبه أن يستعدوا للمسير إلى مكة ، وانجه على رأس الفين من المسلمين ، لا يحملون إلا السيوف في اغمادها . وخوفاً من غدر المشركين ، أعد مائة فارس مسلح ، وأرسلهم إلى المنطقة المجاورة لمكة ، لا يتخطون حرمها ، وإنما يتدخلون لحماية المسلمين ، إذا دعت للضرورة إلى ذلك وساق أمامه الأضاحي (الهدى) ، وهي ستين ناقة ، تنحر في مكة . إنها مظاهرة سلمية ، تدخل مكة ، مهلة مكبرة ، معلنة إيمانها بالله للواحد ،

لا تشرك به شيئاً . وخرجت جموع قريش ، فنصببت خيامها في
السفوح والتلال ، المجاورة لمكة ، لاتريد اللقاء مع جموع المسلمين .
وربما كان زعماء القوم يخشون سريان الإسلام في نفوس شبابهم ،
ولهذا فضلوا للبقاء ثلاثة أيام خارج مكة ، يرقبون ، في دهشة وإعجاب ،
عودة محمد (ص) إلى مكة منصوراً ، بعد أن خرج منها ضعيفاً مطارداً ،
وقد أصبح قوباً ، يلتف حوله أصحابه ، يؤمنون به رسولا نبياً ، وقائداً
وزعيماً ، يهرولون وراءه ، في طوافهم حول للكعبة . ثم يقفون وراءه ،
يركعون ويسجدون ، كلما ركع وسجد . لقد كانت مظاهرة تحمل
معاني للنصر ، نصر الله للمؤمنين ؛ فتزلزل للشرك في قلوب المشركين ،
وتدفعهم إلى التفكير في مصيرهم المحتوم ، أمام للقوة المتزايدة للمسلمين .
ولما انقضت الأيام الثلاثة ، خرج محمد (ص) ، يتبعه أصحابه ،
تاركين أكبر الأثر في نفوس المشركين : فقد اعتنق الإسلام بعد
للزيارة مباشرة ، (خالد بن الوليد) ، وحاول رجال قريش أن يردوه
عن الإسلام ، فأبى ، وقال : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس
بشاعر ، ولا كاهن ، وأن كلامه من كلام رب للعالمين ، فحق على كل
ذي لب أن يتبعه » ، ثم خرج من مكة ، ولحق بمحمد وأصحابه .
وكذلك اعتنق الإسلام (عمرو بن العاص) ، وحارم للكعبة (عثمان بن
طلحة) ، وتبعهم من أهل مكة للكثيرون ،

لقد أتاحت أيام الهدنة ، بعد صلح الحديبية ، للإسلام أن ينتشر
بين عدد كبير من القبائل ، حتى بين قريش نفسها ، وأصبح المسلمون

أكبر قوة ، متحدة متعاونة ، في جزيرة العرب . ولم يبق أمامهم إلا أن يأخذوا مكة . ولكن ليس إليهم سبيل ، مادام الصلح قد أوقف الحرب لسنوات عشر . وأراد الرسول (ص) أن يكون وفياً بعهدده ، إلا أن قريشاً نقضت عهدها ، وأعطت المسلمين العذر في نقض الهدنة ، والعودة إلى حالة الحرب : وذلك أن بنى بكر ، حلفاء قريش ، أرادوا أن يأخذوا بثارات قديمة من بنى خزاعة ، حلفاء المسلمين ، وشاركت ، في هذا للعدوان على بنى خزاعة ، قبيلة قريش ، مما يخالف صلح الحديبية . وهاجم بنو بكر ، تساعدهم قريش ، بنى خزاعة ، وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة ، فالتجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، واستنجدت بحليفها ، محمد (ص) وما أن سمع محمد (ص) بالنبأ حتى عزم على فتح مكة ، ووضع حدنهاثي لتلاعب قريش ، وخياناتها للعهود والمواثيق ، وأدركت قريش سوء فعلاتها ، وخطورة موقفها ، فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة ، ليصلح للوضع ، ويثبت للعهد والصلح ، فلم يجد بين المسلمين ، من كبار الصحابة ، من يشفع له عند النبي (ص) ، ليقابله ويحادثه في الموضوع . وأخيراً أنصحه (علي بن أبي طالب) أن يعود إلى مكة وقال له : « والله ، يا أبا سفيان ، لقد هزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فعاد أبو سفيان ، ليخبر قريش بما حدث .

أمر الرسول (ص) أصحابه أن يستعدوا للخروج ، ولكنه لم يفصح عن وجهة الزحف . وأرسل إلى القبائل المسلمة ، المجاورة ، أن تستعد للمسير ، وفي الوقت المحدد . أعلن محمد (ص) أن الزحف موجه إلى مكة ، وكان ذلك في شهر رمضان ، من السنة الثامنة للهجرة ، وبث

عيونه ودورياته المسلمة ، ليحول دون وصول أنباء مسيره الى مكة ، وكانت جموع المسلمين تزداد ، كلما أمنت في المسير نحو مكة ، لانضمام رجال القبائل إليها في الطريق ، وقد بلغت عدتهم عشرة آلاف رجل ، يقودهم الرسول الكريم (ص) .

ظل خبر المسيرة سرّاً ، لم تعلم به قريش ، وإن كانت تشعر بأن هجوم المسلمين على مكة آت لا ريب فيه ، ولكنها لم تحدد زمناً معيناً لهذا الهجوم . وكان بعض رجالها قد أعلنوا إسلامهم ، وخرجوا ليلحقوا بالمسلمين في المدينة ، وإذا بهم بلاقونهم في الطريق إلى مكة ، فينضمون إليهم . ومن هؤلاء (العباس) عم النبي (ص) . وعلى بعد يسير من مكة ، عسكر المسلمون ، فأمر الرسول (ص) بإيقاد النيران فأوقدوها على مسافات طويلة ، وبأعداد كبيرة ، فأضاءت الأفق ، وزالمت لرؤيتها قلوب أهل مكة ، وهم لا يدرون على وجه التحقيق من يكون أصحابها ؟ وماذا يريدون ؟ وخرج بعض الرجال يستطلعون الخبر ، وكان منهم : (أبوسفیان) و (بديلي بن ورقاء) ، فظن هذا الأخير أنها خزاعة ، نريد للثأر والحرب ، فقال أبوسفیان : « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » . ومر بها للعباس ، وكان قادماً من معسكر المسلمين ، على بغلة النبي ، يريد مكة ، لإقناع قريش بالاستسلام ، دون قتال ، حقناً لدماء أبنائها .

وأخبر (العباس) (أبوسفیان) بالخبر ، ونصحه أن يلجأ للرسول ،

قبل أن يصيبه مكروه ، فقبل ، وسار معه ، ومر بنير ان المسلمين . وراه
 عمر بن الخطاب ، وأسرع إلى خيمة النبي (ص) ، يستأذنه في ضرب عنقه .
 ولكن محمدا (ص) طلب إلى (العباس) أن يحتفظ به في خيمته إلى الصباح .
 وفي الصباح ، أعلن (أبوسفيان) إسلامه ، وجعل للرسول (ص) دار
 أبي سفيان أمناً لكل ملنجي إليها ، فقال : « من دخل دار أبي سفيان ،
 فهو آمن ، ومن أغلق بيته ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن »
 وأمر للرسول (ص) . عمه بحجز (أبي سفيان) في مضيق الوادي ، ريثما
 يستعرض القوة ، وينظم دخول مكة ، ويوزع التعليمات . ورأى
 (أبوسفيان) حينئذ قوة المسلمين ، يستعرض كتابها للرسول للقائد ،
 فالتفت إلى العباس ، وقال له : « ما لأحد بهؤلاء من قبل ، ولا طاقة . والله
 بأبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك للغداة عظيماً » . فأجابه (العباس)
 « يا أبا سفيان ، إنها للنبوة » فقال : « نعم » . وأسرع إلى مكة ، قبل مسير
 المسلمين إليها ، وكانت قریش مضطربة خائفة ، لا تدري ماذا تفعل ؟
 وإذا بصوت أبي سفيان يرتفع منادياً : « يامعشر قریش ، هذا محمد جاءكم
 فيما لا قبل لكم ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، فبهت القوم ،
 وشتمته زوجه ، هند ، وقالت له : « قبحت من طليعة قوم » ، وأهابت
 بقومها أن يقتلوه . ولكن أبا سفيان عاد يردد : من أغلق عليه بابه ، فهو
 آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان ،
 فهو آمن .

قسم الرسول (ص) قواته ، قبل دخول مكة ، أربعة أقسام ،
 بدخل كل منها إحدى جهات مكة : فجعل قسماً بقيادة (الزبير بن

للعوام) ، يدخل من الشمال . وقسما ، بقيادة (خالد بن الوليد) ، يدخل من الجنوب ، وقسما ، بقيادة (سعد بن عباد) ، ويتألف من الانصار ، ويدخل من الغرب . وقسما ، بقيادة (أبي عبيدة ابن الجراح) ، ويضم المهاجرين ، ويدخل من الشمال للغربي . وأوصاهم جميعاً أن يحاولوا جهدهم أن يدخلوا مكة سلمياً ، والا يريقوا دماً .

غزوة حنين سنة ٨ هـ

كانت قبائل هوازن تقيم إلى الجنوب للشرقي من مكة ، وعلى مقربة منها ، وعندما وصلها خبر دخول المسلمين مكة ، خشيت أن يزحف محمد على منازلها ، وأن يضمها إلى حظيرة الإسلام ، وبحث زعمائها الأمر مع قبيلة ثقيف ، وقرروا حشد قواتهم ، ومهاجمة المسلمين ، ولم يتخلف من بطون هوازن غير بني كعب و كلاب ، وقاد هذه للقوة (مالك بن عوف) ، وأنزلها وادي أوطاس (حنين) ، وجمع خلفها للنساء والأطفال والأموال ، ليستमित المقاتلون في الدفاع عنهم . وقد انتقد (دريد بن الصمة) ، وهو محارب شهير ، وشيخ كبير ، خطة مالك ، وقال له : « إن كانت للدائرة لك ، لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه ، وإن كانت عليك ، فضحت في أهلك ومالك . » ولكن (مالك) أصر على خطته ، وهدد هوازن بالانتحار ، إن لم تنفذ ما يأمر به ، فتابعوه . واحتل بقواته قم المرتفعات ، المظلة على الوادي ،

لرمى المسلمين بالنبال ، ثم للقيام بهجوم عام .

وصلت أنباء حشود هوازن وثقيف ، إلى مكة ، وتأكد منها رسول الله (ص) ، بواسطة (عبدالله الأسلمي) ، والذي ذهب ، حسب أوامر الرسول ، واطلع على حشود هوازن وثقيف ، فأخبر المسلمين بذلك . فخرج محمد (ص) ، على رأس اثني عشر ألفاً ، وهبوا وادي حنين ، فجراً ، وما إن توسطوه ، حتى أمطروهم المشركون بوابل من نبالهم ، فراجعتم مقدمتهم ، فأحدثت ارتباكاً في الصفوف . وزاد الأمر حرجاً انحدار المشركين بعنف ، وقيامهم بهجوم عام ، وبدأ المسلمون يتراجعون ، في فزع ، لما أصابهم نتيجة هذه المباغة ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، وركبت الإبل بعضها بعضاً ، ولم تنفع صيحات محمد (ص) بأصحابه ، وهو يقول : « هلموا إلي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله » . وكان للوضع ينذر بمصير سيء لجيوش المسلمين ، وحاول (شعبة بن عثمان ابن طلحة) اغتيال محمد ، ثاراً لأبيه . الذي قتل في غزوة أحد ، وكان يقول ساعتئذ : (ليوم أدرك ثأري من محمد) . وكانت هذه النتيجة المؤلمة درساً للمسلمين ، لما أصابهم من غرور وبكثرة عددهم ، في بداية المعركة .

ثبت محمد (ص) مع عشرة . بينهم عمه (العباس) ، الذي صار ينادي : « يا معشر الأنصار ، يا معشر المهاجرين ، يا من بايعوا للنبي تحت الشجرة ، إن محمداً حي ، فهلموا... » . وقد استجاب نفر من المسلمين

إلى النداء ، وعاد كل منهم حاملاً سيفه وترسه ، تاركاً ما يثقل
حركته ، من درع أو بعير . وتجمع حول الرسول (ص) حوالي مائة مسلم .
وكان للصباح قد أشرق ، وصمد محمد بأصحابه ، بل بدأ هجومه بهم ،
وتزايد عددهم ، وخفت حدة هجوم المشركين . وتسمع للناس
هتافات محمد ، فرجعوا إليه ، يلتفون حوله ، ويشددون هجومهم على
هوازن وثقيف ، وانقلبت الهزيمة نصراً . وللتراجع زحفاً ، وتقهقر
المشركون ، في اتجاه اللطائف . وأخذ المسلمون يطاردون للفلول
المنسحقة ، وأوقعوا بها خسائر فادحة .

جمع محمد (ص) الأسرى والسبي والغنائم ، وأرسل كل ذلك إلى
موضع ، قرب مكة ، يسمى الجعرانة ، تحت الحراسة . وكانت للغنائم
مما لم يغنم المسلمون لها مثيلاً من قبل ، حيث قدرت باثنين وعشرين ألف
بعير ، وأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة
آلاف نسمة من السبي والأسر . وقد وصف القرآن للكريم موقف
المسلمين ، يوم حنين ، بقول الله تعالى : « لقد نصركم الله في موطن كثيرة ،
ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم
الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ،
وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب للذين كفروا ، وذلك
جزاء للكافرين » .

وكان (مالك بن عوف) قد فر ، مع للكثيرين من مقاتلة المشركين ،
إلى اللطائف ، يحتمي فيها عند حلفائه من بني ثقيف ، وأراد محمد (ص)

أن يكون النصر كاملاً ، فسار بمجموعه إلى الطائف ، وضرب عليها الحصار . وكانت هذه المدينة محصنة تحصيناً متيناً ، وسكانها من ثقيف ، أهل خبرة ودراية بالحروب . وقد أصاب أهل الطائف بنبلهم عدداً من المسلمين ، فقتلوا ثمانية عشر شهيداً ، وجرحوا عدداً أكبر ، فأمر الرسول (ص) أن ينتقل المعسكر إلى مكان بعيد عن مرمى النبال . واستمر الحصار شهراً . ولما أرسلت قبيلة بني دوس ، وهي إحدى القبائل المقيمة في جنوب مكة ، إلى المسلمين بعض آلات الحصار والرمي ، ضرب المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وحاولوا نقب أسوارها بواسطة الدبابات التي يختفي الجند فيها . ولكن أهل الطائف أحرقوها ، بقطع من الحديد المحمي بالنار ، وأخفقت محاولات فتح الطائف . وفر إلى المسلمين من الطائف حوالي عشرين رجلاً ، علم الرسول منهم كثرة اللدخيرة والمؤونة في حصون الطائف ، مما يمكنها من الصبر على الحصار طويلاً ، ورأى أن الأشهر الحرم قد قربت ، ففك عنها الحصار ، خشية أن يصيب المسلمين للتعب والملل ، ورغبة في العودة إلى من خلف وراءه ، عند الغنائم والسبي . وترك الرسول إسلام ثقيف للزمن ، خاصة وأن عدداً منها اعتنقوا الإسلام . ولم يطل أمرها حتى جاءت معلنة إسلامها . عاد الرسول (ص) مع أصحابه إلى منطقة تكديس للغنائم ، وبدأ عملية التوزيع ، وأجزل للعطاء لحديثي الإسلام ، من المؤلفات قلوبهم : أبي سفيان ، وأمثاله ، وبعد أن انتهت عملية التوزيع ، جاءه وفد من هوازن يعلن الإسلام ، ويطلب رد سبيهم إليهم ، فقام الرسول بين أصحابه

وقال : « ما كان لي ، ولبنى عبد المطلب ، فهو لكم . » فقال المهاجرون : « وما كان لنا ، فهو لرسول الله . » وقال الأنصار مثل هذا القول . أما من تمسك بحقه من سبي هوازن ، فقال له الرسول : « أما من تمسك منكم بحقه من السبي ، فله بكل إنسان ستة فرائس من أول سبي أصيبه ، فرد المسلمون كافة : « سبي هوازن إلى أصحابه . »

ومما هو جدير بالذكر ، في هذا المقام ، أن نفوس بعض الأنصار قد تغيرت من توزيع الغنائم بكثرة على أهل مكة . ولما نقل (سعد بن عباد) الخبر إلى الرسول (ص) ، أمر بجمع الأنصار ، ثم دخل إليهم ، وحدثهم بما بلغه عنهم ، وقال : « أوجدتم بامعشر الأنصار في إعاقة (الشيء اليسير) من الدنيا تألفت بها قوماء ، ليسلموا ، ووكلمتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون ، بامعشر الأنصار ، أن يذهب للناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك للناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم أرحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » فسرى عن القوم ، وظهر للبشر على وجوههم ، وأصابهم الندم ، لما جال في نفوسهم ، وقالوا . « رضينا برسول الله قسماً وحظاً » دخل الرسول (ص) مكة ، بعد توزيعه للغنائم ، معتمراً ، واستخاف على مكة (عتاب بن أسيد) ، وترك معه (معاذ بن جبل) ، ليعلم للناس القرآن ، ويفقههم في الدين . وانجه ، بعد ذلك ، مع الأنصار والمهاجرين

إلى المدينة ، حيث أخذت وفود للقبائل تأتي معلنة إسلامها بين يدي رسول الله (ص) ، ومنهم وفد قبيلة طي . وكان للنبي قدأوفد (عليها) إليها ، فهدم صنمها ، وعاد ببعض الغنائم والسي ، وبينهم (سفانة بنت حاتم الطائي) المشهور بكرمه في الجاهلية ، وعندما عرفها محمد (ص) ، وذكر ما عرف عن أبيها من كرم ، أطلق سراحها ، وانعم عليها بالعطاء والكرم . فقصدت للشام ، حيث كان أخوها ، عدي ، قد فر إليها بنصرانيته ، فلما ذكرت له صنيع الرسول (ص) معها ، رجع ، واعتنق الإسلام .

غزوة تبوك ٩ هـ

وصلت إلى الرسول (ص) أنباء حشود من قبل الروم والعرب ، المحالفين لهم في بلاد الشام ، وعلى حدود الحجاز في الشمال ، فنادى بالجهاد ، مستهدفاً سحق الخطر في مهده ، ولتتمهيد لتأمين حرية نشر الإسلام ، وتقوية معنويات القبائل الحديثة العهد بالإسلام ، ومحو آثار انسحاب المسلمين ، في موقعة مؤتة .

بلغت قوة المسلمين ، في هذه الغزوة ثلاثين ألفاً ، بقيادة الرسول (ص) ، وسمى هذا الجيش بجيش للعسرة ، كما سميت للغزوة بهذا الاسم ، لما أصاب للناس في ذلك للعام من للعسرة واشتداد الحر ، والجفاف . وأخذ المنافقون يشبطون الهمم ، ويقولون : « لاتنفروا في الحر » . فنزل قوله تعالى . « وقالوا لاتنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً ، لو كانوا

يفقهون » . وبلغ للرسول (ص) أن جماعة من الحاقدين والمنافقين يجتمعون في دار سويلم لليهودي ، يتآمرون ، لتثبيط عزائم المسلمين ، ونشر روح للتخاذل بينهم ، فأرسل من أحرق للبيت على من فيه ، فخرج أولئك منه ، وهو يشتعل ، ونجوا ، ولكنهم تلقوا درسا لم ينسوه .

تحمس المسلمون الأغنياء ، فدفعوا أجزاء كبيرة من أموالهم في تجهيز الجيش ، ومن هؤلاء : (عثمان بن عفان) . وأبقى للرسول بالمدينة بعض الفقراء ، ممن أرادوا الجهاد ، ولم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع ، لأنهم لم يستطيعوا السير مع رسول الله إلى الجهاد . ونظم محمد (ص) شؤون المدينة : فاستخلف عليها (محمد بن مسلمة) ، كما ترك فيها (علي ابن أبي طالب) ، ليقوم ببعض الأمور ، وأعاد للقوة ، التي خرجت ، بقيادة (عبد الله بن أبي) ، وأمره أن يبقى بالمدينة . ويبدو أنه لم يكن واثقاً من إخلاصه .

تحرك الجيش ، الذي لم تشهد جزيرة العرب من قبل مثيلاً له : ثلاثون ألف مقاتل ، يغادرون الحجاز ، في اتجاه بلاد الشام ، وكانوا غالباً ما يسرون ليلاً ، ويسر بجون نهاراً ، لشدة الحر ، حتى وصلوا تبوك ، وكان للروم قد سحبوا منها حشودهم إلى الشمال ، بعد أن علموا بضمخامة للقوة ، التي زحف المسلمون بها . وأقام للرسول ، مع قواته ، على حدود الشام ، يقوى عندها نفوذ الإسلام ، ويرتبط مع أهل المنطقة بعهد وولاء ، وأرسل وفداً إلى (يوحنا بن رؤبة) ، صاحب أيلة ، في شمال

الحجاز، وشرق خليج العقبة ، فأقبل بنفسه إلى الرسول (ص) ، وقدم الهدايا والطاعة ، وصالح محمداً على دفع الجزية . كما صالح المسلمين أيضاً أهل الجرباء ، وأهل أذرح ، وهما في شرقي الأردن ، من أعمال البلقاء ، على دفع الجزية .

وسار (خالد بن الوليد) ، بأمر الرسول (ص) ، مع خمسمائة فارس إلى دومة الجندل ، (واحة الجوف حالياً) ، وكان أميرها (أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني) ، فأسره خالد ، وأخذ كثيراً من الغنائم ، ولحق بمحمداً في المدينة ، وحقن الرسول (ص) دم أكيد ، وصالحه على الجزية ، وأطلق سراحه ، فعاد إلى قومه .

كان للرسول (ص) عندما وجه خالداً إلى دومة الجندل ، قد عاد بمجموع المسلمين إلى المدينة ، بعد حوالي عشرين يوماً ، أقاموا فيها عند تبوك ، وجاءه المتخلفون في المدينة يعتذرون ، ومعظمهم من المنافقين والمخادعين ، إلا ثلاثة منهم ، هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . اعترفوا بذنبهم للرسول (ص) ، ومع ذلك ، أمر الرسول بالإعراض عنهم ، فقاطعهم المسلمون مقاطعة تامة ، حوالي خمسين يوماً ، حتى نزل قول الله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم

أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ،
إن الله هو الغفور الرحيم .»

أما المنافقون ، فقد اشتد للرسول (ص) معهم في المدينة ، خشية
أن يوقعوا بين المسلمين ، حتى أنه أمر بإحراق مسجد ، قرب المدينة ،
كان يأوي إليه جماعة منهم ، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ،
وأن يفرقوا بين المؤمنين . أما زعيم المنافقين (عبدالله بن أبي) ، فقد توفي
بعد غزوة تبوك بشهرين ، وفضل للرسول (ص) أن يكسب قلوب من
حواله للإسلام ، ولهذا لم يرفض حين دعى للصلاة عليه ، بل صلى عليه ،
وقام على قبره ، حتى دفن . وبموت (عبدالله بن أبي) ، انهار ركن
للتفاق في المدينة ، وأخلص معظم جماعته للتوبة لله تعالى .

عام الوفود

بعد عودة للرسول (ص) من غزوة تبوك ، أخذت وفود للعرب ،
من جميع أنحاء الجزيرة ، تفد إليه معلنة إسلامها ، بعد أن فكروا طويلاً
في محمد ، ودينه الجديد ، وانهارت أمام تفكيرهم جميع للنهم التي ألصقت
بالإسلام ورسوله ، ووجدوا أن الإسلام لا ينتزع منهم زعامة ، ولا إماره ،
وإنما يدعوهم إلى وحدانية وأخلاق ، لا ينكرهما للعقلاء ، ولم يجدوا
في النبي (ص) حاكماً يطمع في حكمهم ، ومستبداً يسخرهم لأغراضه ،
وبأخذ أموالهم لنفسه ، وإنما وجدوا فيه مثلاً للتواضع ، والبساطة في

للعيش ، ولزهد في الحياة ، وللبعد عن كل مطمع شخصي ، تنهار أمام إيمانه قوات الشرك ، وتتوحد قلوب ، لم يكن ليوحدها إلا هذا الدين ، الذي أتى به محمد (ص) ، فمالت قلوبهم إليه ، وتطلعت أبصارهم نحوه ، وتوافدوا ، أفراداً جماعات ، يعلمون بين يديه إسلامهم ، حتى سمي هذا للعام (عام الوفود) ، لكثرة من أتى منهم باسم قبائلهم . وكان في مقدمة هذه الوفود وفد تثقيف ، التي طالما حاربت الإسلام ، ووقفت تصد نبيه ، وها هي اليوم تسرع معلنة طاعتها وإسلامها ، طالبة إبقاء صنمها ، لللات ، ولو لمدة يسيرة . ولكن محمداً (ص) يرفض ذلك ، لأنه لا يتساهل في ركن أساسي من أركان الإسلام ، فهو نبي للتوحيد . ولما طلب وفد تثقيف أن يعفيهم رسول الله (ص) من تحطيم أصنامهم بأيديهم ، بعث معهم (أبا سفيان بن حرب) و (المغيرة بن شعبة) ، فقاما بتحطيم الأوثان والأصنام ، وأعظمها اللات ، ودخلت بذلك للطائف في حظيرة الإسلام . ولم يبق ، بعد عام الوفود ، إلا قلة من المشركين ، لا تستطيع للوقوف أمام للتيار الجارف للدين الجديد .

وحين كانت وفود للقبائل تترى على المدينة ، كان أبو بكر يخرج بالمسلمين ، للراغبين في أداء فريضة الحج ، بإذن للرسول (ص) ، متجهاً إلى مكة ، وكان هذا آخر موسم من مواسم الحج ، يلتقي فيه حول للكعبة المسلمون والمشركون . وإذا كانت الأصنام قد حطمت حول للكعبة ، عند للفتح ، إلا أن مشركي العرب مازالوا يقصدون للكعبة ، ليؤدوا مناسك وثنيهم وطقوسها ، وليس لأحد أن يمنعهم ، فهم في بلد حرام ، وفي

شهر حرام ، وبين الكثيرين منهم وبين محمد عهودا ومواثيق .

قرر النبي (ص) أن يضع حداً للشرك في جزيرة العرب ، وأن يجعل للكعبة محجاً للموحدین فقط ، ويديناً للمسلمين ، دون المشركين ، فأرسل ابن عمه (علي بن أبي طالب) ، يلحق أبا بكر في الحج ، ليخطب في الناس . وفعلاً وقف (علي) في جموع العرب . من آمن منهم ، ومن لم يزل على شركه ، فقرأ عليهم آيات من سورة التوبة ، ثم قال : (أيها الناس . إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد للعام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد ، فهو إلى مدته) . وهكذا كانت آيات سورة التوبة ، التي نزلت بعد غزوة تبوك ، تضع الحد النهائي للشرك بين الناس ، وتقيم الأسس المعنوية ، وللقواعد الروحية ، لدولة الإسلام ، وليكون أبناء هذه الدولة على عقيدة واحدة ، دعائهم الإيمان بالله للواحد . وإذا كان الإسلام قد أعلن مبدأ التعايش مع اليهود والنصارى ، فإنما كان ذلك استناداً إلى إيمان هؤلاء بالأساس المشترك وهو الإيمان بالله الواحد . أما للشرك بالله فيرى الإسلام فيه شراً للمجتمع ، وتتمثل فيه مخازي الجاهلية ، وبهدم للركن الأساسي ، الذي تقوم عليه دولة الإسلام ، وفلسفتها في الوجود . ولهذا كانت حرب للشرك يسوغها للعقل والمنطق ، وليس فيها منافاة لحرية الرأي ، ذلك لأن أي دولة تسوغ لنفسها إعلان الحرب على كل ماترى فيه خطراً

على مجتمعها ونظمها ودمستورها ، حتى ولو كان خارج حدودها ،
فكيف إذا كان على أرضها وبين أبنائها ؟ ولهذا كان من الطبيعي أن
يقف الإسلام ، بعد أن اعتنقه معظم سكان جزيرة العرب ، هذا الموقف
من المشركين .

oooooooooooooooooooooooooooo